
الشك

لعماد حسن طلس

مدرس اللغة الفرنسية بمدرسة اللغة الثانوية الأميرية

الشك — كاليقين — حالة خربها كل واحد منا في ظروف متباينة . فكثر ما يود
الناس أن يكد من أمرهم بمعرفة . فيدركون احتمالات متناقضة يحار أمامها ذكائنا ، ويستصعب عليه
الاختيار بينها . وبدلاً من أن نؤمننا قوانا العقلية على اكتشاف الحقيقة ، نجد أنها كأمها تضاعف
الصعوبات التي نواجهها وتبقى بنا عن كل نتيجة مرضية
فما هي طيبة الشك من الوجهة الثانية وما هي أسبابه ؟ وهل هو نوع من أنواع الضعف
ومضرب من ضروب الشر ؟ وإذا صح أن الشك ضروري في كثير من الظروف ، أفليس من
اللازم أن تعلم كيف نمجد الشك ، لتجنب بذلك أخطاره على الفرد والجماعة ؟
تلك هي فقط بحثنا

نلاحظ جيداً أن الشك إنما هو تضالٌّ بين تقديرات مختلفة لا يصل أحدها إلى التوز
باختيار العقل له دون غيره من التقديرات . ومن الخطأ أن نحسب الشك نوعاً من التوازن
بين قوى متعارضة متساوية ، لا تصبح إحداها في الطلب على الأخرى . فمجد الشك في أمر من
الأمور، تعبير كثير أقيمة التضايقات وتظهر لنا كل واحدة منها بدورها كما هي أحق
بقبولنا إياها ، ويعنى العقل ميلاً إلى تفضيل الواحدة منها بعد الأخرى . وهذه هي بالضبط
حال الطالب الذي يتظر نتيجة امتحانه مرتين في قيمة إجاباته . فهو لا يقدر عندئذ هذه الإجابات
تقديراً واحداً ، بل يراه يميل مرة إلى احتمال نجاحه ، وتظهر له آماله في النجاح وأهية الأساس
مرة أخرى . ونميل له في هذه الحالة الثانية ، أن نمة أسباباً جديدة كثيرة يخشى عليه منها من
الرسوب . وهكذا لا نجد له موقفاً واحداً لا يتغير ، بل هو دائم التراوح بين اليأس والرجاء . وهو
لا يفتأ يفحص من جديد أسباب إمله في النجاح ، وخوفه من الفشل ، دون أن يشتر على حالة

واحدة أو يصل إلى نتيجة ثابتة . وليس أيسر من أن نضرب أثباتاً أخرى للدليل على أن الشك حالة حيرة فكرية ، لجاذب العقل فيها قضية متعارضة ، ويظهر منها عجزه عن الفصل فيه . ولما كان الشك حالة تردد وقلق ، فهو بطبيعة الحال مؤلم . وقد يصحبه نوع من الضيق يصعب احتجانه . وذلك ما نشعر به عند ارتباكنا في أمر بهد كثيراً معرفته معرفة عامة محققة . ويحيل البعض أن الشك الذي يفسح مجالاً للإمل ، قول إلاماً للبره من التأكيد إذا كان الأمر أمر كارثة من الكوارث . ولكن الثابت أن السبب من وقوع حدث مشؤوم ، يكون غالباً قسوى أثر في النفس من احتقان الحدث المشؤوم نفسه إذا وقع بالفعل . ولأرب في أن تثبت الطالب من رسوبه ، أيسر احتمالاً من حالة التذبذب وعدم الاستقرار ، التي لا تعان تدفئة لموازنة ما له من فرص في التجاح والرسوب . وكثيراً ما رأينا الآباء والأمهات يفضلون معرفة حقيقة ما حدث لطفل لهم احتقن فجأة معه كانت هذه الحقيقة . بل وكثيراً ما لاحظنا أن التحقيق من موته — رغم ما يبعثه من ألم عميق في نفوسهم — يعين على تهدئة أعصابهم المرتهجة ، على إثر بحثهم عن حقيقة ما حدث لتظلم دون جدوى .

ويختلف رأي الفلاسفة فيما إذا كان الشك نتيجة ضعف في الإرادة . ويرجع اختلافهم هذا إلى عدم اتقانهم على رأي في ماهية اليقين . فيعتقد بعضهم أن مصدره الوحيد هو الذكاء . ويقولون إننا لا نؤمن بالاشياء إلا إذا فهمناها فهماً جيداً . ويرى آخرون أننا لسنا في حاجة إلى الذكاء لفهم القضايا البسيطة ، فهذه بظهر لنا خطأها أو صوابها دون عناء أو إعمال فكر . وإننا إذا استخدم العقل في حل المشكلات المعقدة ، نستند إلى إرادتنا للبحث عن الحقيقة . لأنها هي التي نرسن على قوة الانتباه ، ونعين التفكير على مواصلة نشاطه فلا يترك الصواب إلا وقد فحصها فحصاً كاملاً ، أو مرضياً على الأقل . كما أنها توجه الجهود العقلية التوجيه الصحيح ، فلا تسمح بالإحمال العاصر المهمة اللازمة لانتمام البحث . وليس أدل على ذلك في رأي هؤلاء الفلاسفة من أننا لا نتحيز لرأي دون آخر ، إلا ولا إرادتنا دخل في ذلك .

ويذهب فلاسفة آخرون إلى أبعد من هذا ، فيقولون ألاّ نحيط من الشك لولا تدخل الإرادة التي تمنع الشك من إلتحام العقل وإرباكه ، والتي لولاها لأصبحت الثقة مستحيلة ، حتى فيما يتعلق بالحقائق العلمية .

وهم يقولون في هذا الصدد أن ليس نعمة حقائق لا سبيل إلى تقيدها أو إنكارها . ويجوبون كيف يستند البعض إلى هناك حقائق تلزم العقليين بالاتفاق عليها ، ويستشهدون بتاريخ الفلسفة الذي يثبت لنا تضارب المذاهب واختلافها في كل زمان ومكان . ويتساءلون أين هي تلك الحقائق الثابتة التي لم تكن يوماً من الأيام موضعاً للشك ؟ ويهزم هؤلاء الفلاسفة بأن تدخل العاطفة

والارادة شرط من شروط قبول الانسان لفكره ، وقوابله . وأنه يؤمن هذا اقتدح ، بل حذا
الانسان الى الذكاء ، ولا وثق به . بل لما تحرر عقله من الشك

وانما ورد التعرض لهذه المشكلة الصعبة التي لا يزال الخلاف قائماً عليها بين الفلاسفة أنفسهم .
والشك تريد أن تشير إلى أن دراسة حالات الشك المنهجية ، أظهرت العلاقة بين الشك
وصعب النشاط في الإرادة . فاصح أن صعب الذكاء ، واضطرابه ، ليسا المصدران الوحيدان
لشك المرضي ، وأن مرض الشك يحدث اضطراباً عميقاً في مجموع النشاط العقلي ، مضافاً إلى
ضعف كبير في الإرادة . فمحدث الشك يحتاج عقلياً مجدداً لا جدوى من وراثته ، بل
أنه يجهز بسبب هذا الحاج ، عن إتمام أبسط البحوث واستبعاد المسائل الدخيلة ، ومواجهة
الصعاب الحقيقية . ولن يستطيع العقل البشري تجنب الشك تجنباً تاماً . فكما أن هناك حقائق
ستظل موضعاً لتفتحه ، فإن ثمة حقائق أخرى لن تصبح ثابتة ، إلا بعد أن يذهب الشك ويصفها
النقد . ويتضح من ذلك ما للشك من الشأن في التفكير العلمي

فالعلماء يتفقون على أنه أساس الملاحظة الصحيحة العلمية . إذ أن هناك أسباباً للخطأ
كثيرة . نذكر منها عيوب حواسنا ، ونقص أدوات البحث عندنا ، وتأثرنا بما نوارثه من الأفكار
عن أسلافنا الخ... وواجب الباحث أن يتعلم كثيراً قبل الأخذ برأي من الآراء أو الأيمان
بحدث من الأحداث . وأن يتدبر بكثير من الحذر إزاء كل ما ذكرناه من أسباب التورط في
الخطأ ، وإزاء الفروض التي توحى بها ملاحظة الأشياء والأحداث . والرجل العالم لا ينبغي يناقش
ويفسر الحقائق التي يظنها الرجل العادي ثابتة لا مجال للشك فيها . وهكذا يفوز بالفكرة التي تسمى
اكتشافاً ، والتي قد تضيف حقيقة جديدة الى مجموعة معارفنا العلمية . ولا يكون لهذه الفكرة أية
قيمة إلا بعد أن يقدم الدليل على صدقها واستادها الى الخبرة . ويتمنى العلماء بالخبرة مجموعة الحقائق
التي تقوم على أساس الملاحظة والتجربة . وجميع العلماء المعاصرون على أن الحقيقة هي كل ما تحققت
صحته بعد طول البحث وكامل الدراسة . ويتبين من ذلك أهمية الشك في أثناء القيام بالجهود
التي ترمي الى التحقق من صدق فرض من الفروض أو فكرة من الأفكار . فالعالم لا يتسجل
قبول ما يمر بمخيه من خواطر ، بل هو يحتفظ بتقديره ويبدأ عمله بالشك في كل فكرة من
التفكير ، ومحاولة اقتناع كل رأي من الآراء ، واستقصاء كل ما يمكن أن يوجه الى هذه التفكير
والآراء من اعتراضات . وكثيراً ما يطول شك العالم . وليس أدل من تاريخ العلوم على أن أهم
أسباب تورط العلماء في الأخطاء ، هو عدم إرتياهم إرتياحاً جديداً فيما يحتاج عقولهم من الأفكار
وبحسن بنا أن نشير هنا الى ما يقوله العلماء والمفكرون المعاصرون من القيمة النسبية المؤقتة
للتظريات . فهم يعتقدون أن غاية العلم هي اكتشاف العلاقات الضرورية التي تربط الظواهر

بعضها ، ويقولون في هذا الصدد : « اتقالات هذه العلاقات الأسبقية نسبية ، وما وصلت إليه من نظريات هو أبعد ما يكون عما يسببه البعض حقائق ثابتة ، وعليه فمن يدأب على اعتماد مجرد وتميزه مجرداً لتحقيقاً من أنها لا تمثل الحقيقة ، وإوانع ، ونحن إنما نجد في تغير النظريات لتصبح مطابقة للقيمة المنهجية منها ، ولا نصل على أن تطابق الطبيعة هذه النظريات ويترك كلود برنار^(١) بين العلوم الرياضية وعلوم الطبيعة يقول : « إن نقطة البدء في العلوم الرياضية وحدها دون غيرها ، تكون من حقائق ثابتة ، أما فيما يتعلق بجميع الظواهر الطبيعية فالبادئ التي تصدر عنها بحوثنا ، لا تمثل إلا حقائق نسبية ، وعلى ذلك فليس للمجريين (experimentateurs) حق الادعاء بأن نقطة البدء في بحوثهم ثابتة ، وينبغي ألا يعتقدوا أنها مطلقة ، لن تصل إليها بد التجارب التي لا تتفك تغير وتبدل » . ويضيف « كلود برنار » إلى ذلك قوله : « إن النظريات مؤقتة في علوم انكبياء والطبيعة ووظائف الاعضاء والاحياء والطب على الاخص . وعليه في مقدور المجريين في مختلف هذه العلوم أن يحتفظوا بمحل حريتهم في البحث » وقد يكون الشك خير وسيلة للاحتفاظ بحرية التفكير التي تعد بحق الشرط الاساسي لاكتشاف الحقائق في ميدان العلم وعالم الفلسفة . ولأجل ان يحتفظ الباحث بذهن كامل الحرية والاستقلال ينبغي له ان يتحرر من افكاره وآرائه . وان يرسم عليها ويخضعها للنقد والتجريح . ولقد ذهب بعض العلماء الى ان الجهل شرط من شروط المقدرة على التجديد . ولكن « كلود برنار » يعتقد ان هذه الفكرة غير صحيحة ولو انها تخفي حقيقة ، اذ لو صح ان الجاهل لا قيمة الافكار المتوارثة ، فهو ناقص ، تفوز العناصر الضرورية لاختراع الفكرة . ولا ريب في ان اعتماد العقل للاكتشاف يزيد بزيادة تسطحه بالمعارف الضرورية ، بشرط ان يحتفظ باستقلاله آراء هذه المعارف التي قد تسيء ، لانها كثيراً ما تكون خطأً وثقلاً .

ثم ان الشك في آرائنا يمتنا على عدم الازدراء ، الا مع ثقنا بأقننا ثقة تامة . وكما ان واجب الباحث ان يتجنب كل ثقة ساذجة في نفسه ، كذلك ينبغي له ألا يتأثر بما لشاهير الرجال والمفكرين من سلطة وقوة . لأن أكثر الآراء عبقرية ونبوغاً ، تبقى قابلة للتصحيح والاقام . ويفرق الفلاسفة بين شك العالم وريبة الشاك . فالشاك لا يؤمن بالعلم . في حين ان العالم الذي يشك في نفسه ، يؤمن بالعلم . ومعنى هذا ان شك العالم ينصب على وسائل استقصائه وصحة آرائه . ولكنه لا يمس العلم بسوء .

وربّ معرض يقول : اذا صح ان العالم يشك في كل شيء ، فكيف به يؤمن بالعلم وهو يعتقد ان صحة نظرياته نسبية ، وأنه يجوز له ان يهجر هذه النظريات ويسد لها اشم آليس من

(١) كلود برنار من اكبر العلماء الفرنسيين في القرن التاسع عشر (١٨١٣ — ١٨٧٨)

العجيب أن نطق كلمة « حقيقة » على آراء ومبادئ يعان منها مؤلفة ؟ ! وكيف تأخذ بها ونحن نشك فيها ؟

ومعنى الخطأ في هذا الاعتراض اعتقاد أصحابه أن العلم لا يتيسر له أن يؤدي رسالته إلا بأن يضر الطبيعة الماهية للحقيقة . ولكن الواقع على خلاف ذلك . إذ غاية العلم — كما قدما — هي أن يحدد العلاقات بين الظواهر (phenomena) وهو لذلك قابل للتقدم . ولقد ذكرنا أن هناك نتائج كثيرة ثبت دعائها وفرغ من تقرير صحتها . وليس أكثر من العلاقات التي اكتشفت من زمن بعيد بين مختلف الظواهر ولا زالت كما هي . ويتساءل العالم الفرنسي « محمود برنار » : وهل تميز العلاقات بين ما يمكن ملاحظته من الظواهر الضرورية ، إذا أخذ العلماء بنظرية جديدة في الضوء ؟ !

وبين مما تقدم أن الشك ليس عجزاً أو ذهنية فكرية لحسب ، بل هو في كثير من الأحيان موقف حذر يرفض معه العقل كل تقدير لا يقوم على الآلة وسعة الاطلاع وطول الاستقصاء . وإذا كان ينبغي لنا أن نعلم كيف نعيد الشك ونحسنه ، فمن أهم الأمور أن نقيم أخطاء الاسترسال فيه فقد يكون من نتائج الريية في كل أمر من الأمور أن يتوعد الإنسان عدم الاستقرار ، فيصح متردداً لا يقوى على اتخاذ قرار نهائي . كما قد يفدو عاجزاً عن القيام بذلك الجهد الذي يتلخص في تنظيم عناصر الدرس والمناقشة وترتيب الحجج وفق أهميتها للوصول إلى نتيجة مقبولة في نهاية الأمر . ولقد لوحظ فضلاً عن كثير من المفكرين المتنازين قد بالغوا في الفحص عن كل فكرة من أفكارهم وكل دراسة من دراساتهم ، فأدى ذلك إلى اضطراب طريقتهم في التفكير . ولقد سبق أن ذكرنا أن الشك حالة ضيق مؤلم . ولكن كثيراً ما يتحول الشك في الحقيقة إلى عدم اكتراث بها . وقد يلد للسقل الاستمرار في نشاطه دون اهتمام بالنتيجة التي ينبغي له أن يحصل عليها بفضل هذا النشاط . وهكذا ينقلب التفكير إلى ضرب من ضروب الملل ، يقتصر معه المفكرون على التمتع بملاحظة خصوصية أذهانهم والاعجاب بمروتها وتوهمها على سواها من الأذهان ، غير آبهين بحل المشكلات واكتشاف الحقيقة . وهذا خطر كبير إذ الواجب أن تكون غاية كل نشاط فكري ، هي الوصول إلى نتيجة خاصة وإقامة الدليل على صحة هذه النتيجة أو أحمال صحتها على الأقل



ولكي لا تكون دراستنا هذه في الشك ناقصة ، نرى أن نضيف إلى تحليلنا النظري له وسائل الوقاية من تحولها من وسيلة نافعة للشور على الحقيقة ، إلى ميل أو حالة مرضية

وقبل ان ندرس هذه الوسائل ينبغي لنا ان نذكر ان الشئ يكون سريع الاتصال بحدده . والاتصال السريع الحاد يكون اما طبعياً او مكتسباً . فإذا كان مكتسباً ، فينبغي لنا ان نعرف الظروف التي تحرك هذه القابلية للاتصال الحاد لتلافها إن أمكن . او — على الأقل — لتقاوم آثارها بمجرد توفرها ، إذا كان من المستحيل علينا تجنبها تماماً .

وعلى وجه عام نجد ان الاتصال السريع الحاد المكتسب يكون نتيجة لأحد أمرين : هما الاتصال النفسي الشيف المتكرر ، او بعض الامراض العنيفة . وعليه فواجبنا ألا نألوا جهداً في ان يأس أطفالنا من الاتصالات النفسية المفاجئة ، او التي لا جدوى من ورائها . وان نحول بينهم وبين حلولهم بأنفسهم يستحيل عليهم اخفاء ميولهم وعواطفهم . فكم من طفل اضطرب كيانه على اثر مشاهدة . منظر أسوأ منه او نتيجة لملاطفة جامحة كتبها في نفسه ، اعتقاداً منه انها سريرة او مزرية به . فأصبح بذلك قلقاً متلقطاً الهواجس ، متردداً يرتاب في كل امر من الامور .

فإذا كان الاتصال الحاد نتيجة لحادث او مرض من الامراض ، فتواجب تهذبة هذا الاتصال قبل ان يعود الطفل الى مواصلة حياته العادية . ويؤكد الاختصاصيون انما نستطيع ان نجد في ظروف حياته الخاصة وسائل تهدئته اتفق من العقابير وأكثر منها ثمرة . وان اهم ما يجب الالتفات اليه ، ضرورة العمل على تحويل تفكير الطفل عن اتصاله الذي يسببه مجرد ملاحظته له واهتمامه به . ويقول هؤلاء الاختصاصيون ان زوال الاتصالات النفسية الحادة ، يستغرق زمناً طويلاً ، وانما اذا عرضنا الطفل اتاء هذه المدة للاتصالات النفسية جديدة ، او الى اي جهد عقلي متعب ، وصحت عنده نهائياً هذه الاتصالات الحادة ، وأصبح زوالها وشيخاؤه من آثارها مستحيلاً .

اما سرعة الاتصال الطبيعية ، فتظهر امراضها في طور المراهقة . وعليه فينبغي لنا أن تبدأ ملاحظتنا الدقيقة لها منذ احتلام الصبي الذي يبدأ معه تطوره التأسلي وتكوينه الديني . وهما مصدران عظيمان لنمو الاتصالات النفسية الطبيعية ، إن لم نمن بأرشاد الطفل في هذه الفترة رعاية تامة .



ولعل من الخير أن نقول هنا كلمة عن أخطار هذه الفترة الهامة من فترات تطور الطفل تطوراً جسمانياً وسخوياً . فكثيراً ما تطع الطفل بطابع يصعب إزالته ، كما قد يستحيل أحياناً القضاء على آثاره .

وسلوكهم أولاً عما يسبه الأطباء وصناد النفس الاتعمال الجنسي . وثانياً عما يسمى
الاتصال الشبهي

أما الاتصال الجنسي فهو من أعمق الاتصالات أثراً في قلب كيان الشخصية . ذلك بأنه نتيجة
أول انقلاب جسماني منوي عند الطفل . ولعل أومة بلوغ الرشد هي أهم الازمات الدالة على
الفرق . فانطلق في هذه السن لا يتدري ما حل به بالضبط . ولكنه يشعر باستيقاظ رغبات في
نفسه ، ويخرج من الاضطراب عند رؤيته الجنس الآخر ، أو الاحتكاك به . ونحن نلاحظ بأنفسنا
أن أطفال الجنس يتجاذبون كثيراً في هذه الفترة وهم قارة يبحث احدهم عن الآخر ، وطوراً
يفر منه . ويكون الدور الشهري عند الفتيات علامة هذا الانقلاب الحزير . فكثيرات منهن
بضطربن له اضطراباً كبيراً . وقد تاورهن آلاف من الأفكار المختلفة عند حدوثه ، أن لم يحصلن
على إيضاح اسبابه وطبيعته . كما ان الهواجس الجنسية تبدأ في هذه السن في النمو عند
الأطفال ، المذكور منهم والآنث على السواء . وقد يصحب هذه الهواجس ظواهر جنسية . وعلى
أي حال فإن هذه هي الفترة التي يبدأ الأطفال يفكرون فيها في علاقة الرجل بالمرأة ، وفي الأمومة
والولادة . وهم محزون خروفاً غريباً بمنهم من الاستصار عن هذه الاشياء من آبائهم
ومربيهم . فان حدث ووجهوا لنا سؤالاً في هذا الصدد فنحن نرحبهم ، ونقهرهم ان من العار
ان يفكروا في هذه المسائل . ونحاول اقناعهم ان هذه المسائل الطبيعية ، غير طادية . وأنه
يحسن بهم ألا يلتفتوا اليها ، لان من الرذائل ان تشغل بالنا بها
فاذا يحدث عندك ؟

كلنا يعلم أن حب الطفل للاستطلاع يزيد كلما حاولنا أن نلصق الوقائع الحافة به بمجوة من الابهام
والتموض . وهو لا يني بحبه في فهم ما يحل به ، وتطبيق كل ما يمر به على نفسه . وهو إذ تنمو غريزته
الجنسية ويسير تطوره الجنسي إلى جانب تطوره المنوي ، يكون في نضال دائم مع نفسه . فتقاذفه
غريزته التي تصف به ورغم أنه من جهة ، ونهمة للمبادئ الخلقية الذي أسىء تكونه من جهة
أخرى . ويظهر هذا النضال أكثر وضوحاً في الصبيان وذلك لأن الوظيفة الجنسية تم عند الفتيات
بفضل الدور الشهري ، في حين أن الإفرار التمددي يبنى عند الذكور في حاجة إلى مخرج . فاذا
لم يمتز على هذا المخرج بطريقة طبيعية ، فهو يجده بطرق شاذة تتركب الجسماني طامة والجهاز
الخصي خاصة . كما قد تمنع هذا الجهاز من النمو نمواً طبيعياً ، أو تضعف قوة مقاومته . وكثيراً ما
يكون لها بجانب الآثار السالبة آثار أخرى أكبر خطورة ، وهي الشنود والاتقلاب الجنسي .
وهذا هو السبب في أننا نجد أن حالات جنسية شاذة تصيب كثيراً من الأشخاص شديدي الحجل
والتمسك بأهداب المبادئ الخلقية

والملاحظ أنه إذا ترقفت الوظيفية الجنسية عن العمل توفيقاً تاماً ، نتيجة الضغط النفسي ، فإن الاضطرابات النفسية وما ينعجبها من اضطراب تتبع أقصى ضرر للحدة. وعندئذ تصبح المألة الجنسية ، أهم ما يشغل الشاب الذي قد يقوم تسليتها على تفكيره ، ولكن مقبولة هذه لا تقوى على أن تمنع عنه القرار منها كلها أمس فيه . وهي جادة في طلبه . وهكذا قلنا في حالة الشك انطوري التي تراكم بعدها طبقات أخرى من مختلف الشكوك

ويؤكد الاختصاصيون أصحاب المؤلفات التي رجحنا إليها في هذا البحث ، أن الوظيفة الجنسية هي النقطة التي تبدأ منها شكوكنا جميعاً ، وإن كل الحوائل التي نقيمها ، عمداً أو عن غير قصد ، لمنع هذه الوظيفة من أداء عملها بطريقة معقولة ، تؤدي إلى اضطراب تكوينا الجسماني النفسي اضطراباً ليس بعده اضطراب . وهذا ما يسمونه بالاضطراب الجنسي

ويستند هؤلاء الاختصاصيون أن المصدر الثاني للشك المرضي هو الاتصال الديني . ويقولون أن تطور العاطفة الدينية يتبع تطور النمو الجنسي ونمو شخصية الفرد نفسها . والواقع أن فترة الاحتلام هي الفترة التي يبدأ فيها عند الطفل استيقاظ الحواس الدينية والخلقية بل والفلسفية . وعندئذ تأخذ شخصيته الفكرية والخلقية في التكون وتسمح في ذهنه بعض الأفكار العامة ، ويظهر خلقه ، ويتضح اتجاهه الجديد النهائي . كما أن تربية الطفل من الوجهتين الخلقية والدينية تبدأ هي أيضاً في هذه الفترة . فنحن نتحدث إليه فيها عن واجباته نحو نفسه وغيره ونحو الخالق ونعزج بذلك الدين والأخلاق

ويسمى في هذه الفترة بشكل خاص احساس الطفل وقابليته للاتصال والتأثر . بل إن الأشياء التي تؤثر في نفسه في هذه الفترة ، تطبعها بطابع خاص عميق . ثم إن تخيله يأخذ في النمو نمواً محسوساً ويستند عنده تداعي الأفكار والمكاسات الاشعالات النفسية ، بعضها عن بعض ولكن كل هذه القوى تكون رغم نشاطها وحيويتها ضئيلة . وواجب المرء أن يجد في أن يكون نموها جميعها متناسباً متوافقاً . وأن يحول دون زيادة قابلية الطفل للاتصال إلى حدٍّ تصبح معه مصدر خطر عليه

وإذاً للملاحظ مع الأسف الشديد ، أننا نقوم بمكس هذا . فنحن عندما نحاول أن نرس في قس الطفل فكرة الخير وحب الخالق وإكباره وطاعته ، نلجأ إلى إرهابه من الشر وآثاره وإخافته من نار جهنم وسوء المصير . وبدلاً من أن نستمر أطيب عواطفه في تربيته الدينية وتكوينه الخلقي ، نستخدم أردل غرائزه واسقطها ، وأصمى بها الخوف

ويظهر عند ذلك الانحدار النفسي كفساد أساسي من مصادر الشك . بل تعامل من خواص
توحيد الارض ، المعصية لتو شذرك اسرى بعد ذلك . وليس من السهل ان فهم ان من نتائج ذلك
ان يثبت عند الطفل اضطراب نفسي مصداقي تعين ما قد تلازمه طول حياته . فذلك فترة تطرر
بشخصه . بل فترة تفكيره من فكر الوجهه

وبخطورة هذه الفترة أعمق الأثر في الاتحاد النهائي لحياة الفرد ، ينبغي لنا أن
نفسر في انشائها على إحاطة الطفل بحور من الايمان والثقة بالنفس ، وكذا زادت صلابه الاس
اني شيد عليها شخصيته وتكونه اخلاقي والديني . زادت قوة مقاومة هذه الاس على سر الايام
ومن الخطر ان نسهل في تقويم اي اعوجاج جنسي عند الطفل او تهاون في تديده اي شك
خفي أو ديني . فقد يصح هذا الاعوجاج نقصاً خطيراً وقد يقلب هذا الشك كقراً مستطيراً
وبدلاً من أن ترك للظروف أمر ارشاد الطفل وأتارقه ذهنه ، وبدلاً من أن تهرب من الإجابة
على أسئلة مدعين الحق عن فهمها وإهمال مواجهه دون اي تفسير أو إيضاح ، يجب علينا أن نهدي
الطفل سراء السبيل . وأن نجيب على أسئلته بالقدر الذي يستطيعون فهمه ، وأن ندد شئنا عنهم ،
ونفضي على بصائر الرية عندهم



والخلاصة أن الدكاء يصو الى اليقين والاستقرار ، أعني الى معرفة الحقيقة معرفة أكيدة .
وعلى ذلك فالشك بدسراً من ضرور البشرية . بل أنه من أكثر هذه الشرور إبلاماً لها . ولكنه
ليس كذلك في كل الظروف . بل أنه من أهم وسائل الشور على الحقيقة وتجنب الخطأ
ولقد كان ديكارت من أكثر الفلاسفة تعلقاً بالشك واليقين . ولكنه مع ذلك كان يتر الشك
من الأساليب الأساسية في طرق البحث . ولقد قال باسكال : « إن إجابة الانكار والاعتقاد
والشك هي بالنسبة للإنسان كالسدو بالنسبة للخيال »

وليس أصدق من كلمة باسكال هذه . ولكن الناس يخضعون بسهولة لتأثير يثامهم وضبط
عواطفهم فيتعجلون الانكار . ويشرعون في الاعتقاد والشك كيفما اتفق
وواجب الترية أن تعمل على أن تكسب العقل كفاءة اجادة الانكار والاعتقاد والشك .
فاذا بشت هذه الثاية او اشرفت عليها ، كان لها على الفرد فضل ترويده « برأس محكمة الصنع » .
وما هذا بقليل